القُرآنُ الكَريمُ بَيْنَ خُصوصِ اللّسانِ وعُمومِ الرِّسالَة

الدكتور عبد الرحمن بودرع

بحث نشر في كتاب

"رسالة القرآن"

بمشاركة نخبة من الباحثين والكتاب

وتنسيق إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية بدولة قطر

الطبعة الأولى ربيع الأول 1431هـ - شباط (فبراير) 2010م

أعيد نشره إلكترونيا رمضان 1439 هـ / 2018م

القُرآنُ الكَريمُ
بيْنَ خُصوصِ اللّسانِ وعُمومِ الرّسالَة

الدكتور عبد الرحمن بودرع(*)

إنّ القرآنَ الكَريمَ يُخاطبُ البشريّةَ جميعَها بالمبادئِ والمُثُل، وهو كتابُ العربية الخالد؛ وما من إهمالٍ يلْحَقُ باللسانِ العربيّ إلاّ ويُصيبُ عقيدةَ المسلمينَ وكتابَهُم ودينَهُم بالمِثْلِ، فقد كان لسانُ القرآنِ ركناً مكيناً في بناءِ وحدةِ الأمّةِ، ولا بدّ أن يعودَ هذا اللّسانُ إلى ما كان عليْه، لتعودَ لهذه الأمّة مكانتُها وريادتُها في حملِ الرّسالَة وتبليغِ الأمانة.

تقديم:

نزل القرآن الكَريمُ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وخاطَبَ النّاسَ كافّةً، واستوعَبَ حاجاتِ البشرِ المادّيّةَ والرّوحيّةَ في كلّ زَمانٍ ومكانٍ، ولم يُغادرْ صغيرَةً ولا كبيرةً من أمورِ النّاسِ إلاّ واعتنى بها، فقد جمعَ بينَ شموليّةِ الخطابِ وعربيّةِ اللّسانِ، ونسخَ الشّرائعَ السّابقةَ التي جاءت لتُعالجَ ناحيةً من

(*) باحث أكاديمي.. جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب، تطوان (المملكة المغربية).

النّواحي؛ فقد جاءتْ دعوةُ موسى، عليه السلامُ، لمواجهةِ الوثنيّةِ والدّعوةِ إلى التّوحيدِ، وجاءَت دعوةُ عيسى، عليه السّلامُ، لمواجهةِ حبِّ الدُّنيا والدّعوةِ إلى إصلاحِ الرّوحِ والأخلاقِ. ثمّ خُتِمَت الرّسالاتُ السماويّةُ بدينِ الإسلامِ المُتكاملِ الذي يُعالجُ قضايا الإنسانِ كلَّها ويضعُ لَها الحُلولَ الشّاملةَ(1).

- رسالَةُ القرآن الكَريم عالَميّة إلى النّاسِ كافَّةً:

من خصائصِ رسالَة القرآنِ الإنسانيّةِ أنّها حلّ وسطٌ لجميعِ مطالبِ الرّوح والجَسَد، ومصالح الدّنيا والآخِرَة، وهو ما نصّ عليه القرآنُ الكريمُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:143).

ومن خصائص رِسالَة القرآنِ الإنسانيّةِ أنّها جاءَت لإسعادِ الإنسانِ في الدّارَيْنِ، ولا يحصلُ الإسعادُ إلاّ بتوجيهاتِ القرآنِ الكريمِ نحو تزكيَةِ النّفسِ والإيمانِ باللّه الواحدِ والعملِ الصّالِح ومَكارِم الأخلاقِ.

ومن خصائصِ رِسالةِ القرآنِ الإنسانيّةِ تحقيقُ التّعارُف بينَ البشرِ؛ فقد امتازت أمّةُ محمّدٍ ﷺ بالإيمانِ بسائرِ الرّسُلِ، وقَصَّ القرآنُ الكريمُ قصصَ الأنبياءِ، ودَعا إلى الألفةِ والأخوَّةِ بينَ البشرِ، وتلكَ حجّةُ القرآنِ الكَريمِ على الأممِ لتكونَ الأمّةُ الإسلاميّةُ جديرةً بالإمامَةِ.

ومن خصائصِ هذا الدّين الخاتمِ الذي دَعا إليْهِ القرآنُ الكريمُ أنّه دينُ اليُسرِ ورفعِ الحَرَجِ والمشقّةِ والإعناتِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا

(1) للتّوسّع في معرفَة خصائص الرّسالَة القرآنيّة التي هي رِسالَة عالَميّة، يُنظَرُ في كتاب: السيد محمّد رشيد رضا، الوحي المحمدي (بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر) ص221-251.

كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة:286)، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة:185)، ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحجّ:78)، فالمُكَلَّفُ يسقُط عنه الواجبُ الذي فيه حرجٌ ومشقّةٌ حتّى ترتفعَ المشقّةُ.

ومن خصائصِ رِسالةِ القرآنِ الإنسانيّةِ أنّها حَمَلت منهجَ التّوسّطِ في الأمورِ وعدم الغلوّ في الدّينِ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ (النساء:171)، فقَد أباحَ القرآنُ الكريمُ الطّيّباتِ بلا إسرافٍ، وأباحَ الزّينَةَ بلا كِبْرِياء: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:32).

مِن خصائصِ رِسالةِ القرآنِ الكريمِ قلّةُ التّكاليفِ وبساطتُها؛ فقد كان النّبيّ ﷺ يُخاطِبُ النّاسَ بخطابِ التّيسير، ويُعلّمُهم أمورَ دينهِم، فَكان هذا المنهجُ النبويّ الذي رسَمَه القرآنُ الكريمُ من أهمّ أسبابِ إقبالِ النّاسِ كافّةً، عَربهم وعَجَمهم، على دعوةِ القرآنِ.

ومن خصائصِ رِسالةِ القرآنِ الكريمِ أنّها تُراعي درجاتِ تفاوتِ النّاس في العُقولِ والأفهامِ وعلوّ الهمّةِ وضعفِها، وقد جاءَت نصوصُ القرآنِ الكريمِ منها القطعيّ العامّ ومنها غيرُ القطعيّ الذي تتفاوتُ فيه أفهامُ البشرِ فيأخذُ كلّ واحدٍ بما هَداه إليه اجتهادُه؛ فالفرائضُ الدّينيّةُ العامّة والأحكامُ القطعيّةُ لا تثبتُ إلاّ بنصّ قطعيّ يفهمُه جميعُ النّاس ولا يملكُ أحدٌ حقَّ الاختلافِ فيه، أمّا الآياتُ الظّنّيّةُ الدّلالَة فهي مَوْكولَة إلى اجتهاد النّاسِ.

ومن خصائصِ رِسالةِ القرآنِ الكريمِ أيضاً مُعاملَةُ النّاسِ في المُحاسَباتِ والحُدودِ، بظواهرِهم وتفويضِ أمرِ البواطنِ والسّرائرِ إلى اللّه.

ومن خَصائصِ رسالةِ القرآن الكريم أنّها عالميّةٌ شاملةٌ، فمن الطبيعي أن تكونَ رسالةً خاتمةً تستوعب أصولَ الرسالات السابقة وتتحدث عن أنبيائها وأقوامها. ولكنّها في شموليتها واستيعابها تمتازُ بالسماحة وعدم الإكراه في الدّخول في الدّين، بل تمتاز بالأمر بالإحسان للمخالِفينَ.

ومن خَصائصِ الرّسالَة العالميّة الخاتمةِ أنّها تَدعو إلى العلم وتأمرُ به، ولا تعتمد على خوارق العادات، بلْ تعتمدُ على التّأمل والتّفكر والنظر في الكون الفسيح. وهذه المعجزة برهان على عالمية رسالة القرآن الكَريم.

لقد أثبتَ القرآن الكريمُ أنّ أهلَ الكتابِ يعرفونَ القرآنَ كما يعرفونَ أبناءَهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:20).

ونزلَ القرآنُ الكريم بخطابٍ صريحٍ لكلّ مَن أدرَكَتْه دعوةُ محمّد ﷺ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:19)، فَمَن بلغه القرآن بلغة يفهمها ويحصل منها مقصودُه فقد قامت عليه الحجة به وبلغه الإنذار.

لقد وردَ خبر الرسالَة الخاتمة في الكتب السابقَة، وهذا الوُرود بشارةٌ ودليلٌ على عالميّة رسالةِ القرآن وخاتميتِها: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ

إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:157).

فجاءَ الأمرُ باتّباعِ خاتم الأنبياء والمرسلينَ ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف:158).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:28).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:107).

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفُرقان:1)، فبعثَ النبي ﷺ رُسُلَه إلى عُظَماءِ الأقوام ورؤسائهم في العالَم؛ بعثَ دحيةَ الكلبيّ إلى هرقل الروم، وحاطبَ بنَ بلتعةَ إلى مقوقس مصر، وعبدَ الله بنَ حذافة السهميَّ إلى كسرى الفرس، وعمرو بن أميةَ الضمريّ إلى نجاشي الحبشة، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث الغساني حاكم دمشق. بُعِثَ هؤلاءِ الصّحابَةُ، رضي الله عنهم، لنشرِ دينِ الله في الأرضِ.

لقد تضمّنَت رسالةُ القرآنِ أهدافاً وغاياتٍ إنسانيّةَ عامّةً، فاستحَقّت أن تُدعى إليها سائرُ أممِ الأرضِ؛ فالعقيدَةُ التي تدعو إليها رِسالةُ القرآنِ والأخلاقُ التي تُنادي بها، والتّشريعات التي تُعلنُها، كلّ ذلِك لَه طابعٌ إنسانيّ ويُوجّه إلى البشريّةِ كافّةً؛ لأنّ النّاسَ كلّهم عبادُ الله، خَلَقهم من ذكرٍ وأنثى وجَعَلَهُم شُعوباً وقبائلَ ليتعارَفوا، وخلقهم في أوّلِ الأمرِ من طينٍ ثمّ جعلَ

نسلَهم من سُلالةٍ من ماءٍ مَهين.

وقد تحدّث القرآن الكَريم عن نماذجَ من المجتمعاتِ البشريّة التي سادَت ثمّ بادَت، بعدَ أن أصابَها الهلاكُ لكُفْرها بالرسُل، ورسَمَ مَلامحَ المجتمع البشريّ المنشود الذي ينبغي أن يولَدَ في كلّ وقتٍ وحينٍ وفي كلّ زمانٍ ومَكانٍ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:104).

وحذَّر من التشبّه بالأمم والأقوام الهالكة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:105).

وعرضَ القرآنُ الكَريمُ لجميع المبادئ والقيمِ التي يعيشُ بها البشرُ وتؤثّر في حياته، وحدّدَ موقفَه منها، وهي القَرابةُ والنّسبُ والمالُ والتّجارةُ والمسكَنُ والأرضُ، وبيّنَ للنّاسِ كيفَ ينبغي أن يعيشوا بها من دونِ أن تُهيْمنَ عليْهم وتصرِفَهُم عن حبّ الله ورَسولِه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (التّوبَة:24).

بل إنّ القرآنَ الكريمَ عالجَ قضيّةً كُبرى تقضّ مضجَعَ الإنسانيّة، وهي هاجِسُ مَصير هذا الكوْنِ، ونهايَة الحَياة، وقد عالجَ القرآنُ الكَريمُ هذه القضايا العُظْمى مُتجاوِزاً حدودَ الزّمانِ والمَكانِ وبيئةِ نزولِ الوحي، ليشمَلَ كلَّ زمانٍ وكلَّ مكانٍ يُظلّ البشريّةَ في هذه الحياةِ، ولهذا خَلا القرآنُ الكَريم من ذِكْرِ الخُصوصيّاتِ كأسماءِ الأعلام والبُلْدانِ إلاّ ما اتّصلَ

بالقَصَص التّاريخيّ وبالغَزَواتِ وغيْرِ ذلِك من المَحطّاتِ الحاسمَةِ في تاريخِ الإسلام، ممّا سَيكونُ لَه ما بعْدَه، ولهذا أيضاً لم يبدأ القرآنُ الكَريمُ بالعربِ لينتهيَ عندَهُم، ولكنّه بدأ عندَهُم ليُحمّلَهم المسؤوليّةَ الثّقيلَةَ والأمانةَ الجسيمَةَ، وليُكلّفَهُم بنشرِ الرّسالَة إلى الإنسانيّةِ كافّةً، فاخْتارَ من أنفُسِهم النبيَّ الخاتمَ، واختارَ من الألسنَة اللّسانَ العربيّ، حتّى «أصبَحَ بيْنَ القرآنِ والأمّةِ العربيّة ولُغةِ العرب صلةٌ لا تنفصمُ ورابطةٌ لا تنحلّ، هي الصّلةُ بينَ رسالةٍ إنسانيّةٍ وأمّةٍ مُبلِّغةٍ و لُغةٍ مُعبِّرَةٍ»(1).

وذلِك لأنّ غايةَ الرّسالَة القرآنيّة الخاتِمَةِ ربطُ الإنسان بخالقِه وتنبيهِه على مسؤوليتِه وتحريرِه من أن يضيعَ في المتاهاتِ والتّفاصيلِ، حتّى تستقيمَ حياتُه ويعمّ الأمنُ والاستقرارُ والعَدالَةُ سائرَ البشرِ على اختلافِ ألوانهم وأجناسِهم وألسنتِهم.

إنّ القرآنَ الكريمَ نقلَ الإنسانَ من ضيقِ القُرى والبيئاتِ المحلّيّةِ إلى سعَة الكونِ والبشريّةِ الشّاملَة، ومن عبادةِ الأوثانِ إلى عبادَة ربّ البشرِ.

ولكنّه، وهو يُؤدّي هذه الرّسالةَ الخالدةَ انطلقَ من بيئةِ العربِ ومن لسانِهم، فلا ينبغي إهمالُ هذا الاختصاصِ الذي للعربيّةِ في البناءِ الجديدِ وهذه المنزِلَة لأهلِها في تنفيذِ المبادئ.

وهكذا فإنّ خَصائصَ هذا الدّين لم تَدَعْ شيئاً من حياةِ الإنسانِ الدّنيا إلاّ وضعَت له النّظامَ الأمثلَ الذي ينسَخُ كلَّ نظامٍ صنَعَه البشرُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (آل عمران:85).

(1) محمّد المُبارَك، دراسَة أدبيّة لنصوص من القُرآن، ط4 (دار الفكر، 1392هـ-1973م) ص132.

وما تركَت دعوةُ اللّه أرضاً إلاّ بلَغَتها وشملتْها بخيري الدّنيا والآخِرَة.

وبذلِك فإنّ للقرآن الكَريم تأثيراً كونياً، والعودةُ إلى فهمِه على الوجه الصّحيحِ وإحياءِ تجربتِه من جديدٍ سيُعيد هذا التأثيرَ الكونيَّ في تاريخ الحضارة الإنسانيّة، ولكن من غيْرِ أن ننسى أنّه ربّانيّ المصدرِ، بشريُّ المبادئ والرّسالَة، عربيّ الخطابِ واللّسانِ.

- القرآنُ الكَريمُ عربيُّ اللّسانِ عالميُّ الرّسالَة:

الحقيقةُ أنّنا لن نتمكّنَ من فهمِ القرآن الكريم فهماً دقيقاً حتّى نسترجعَ السّياقَ الذي نزلَ فيه ونبعَثَه بالطّريقَةِ التي يتفاعلُ بها مع نفوسِنا، ونسترجعَ تَجرِبَةَ الوَحيِ غضّةً طريّةً، ونستعيدَ تجرِبَةَ التّفاعُلِ النّفسيّ والتّجاوُبِ الرّوحيّ حيّةً، فإذا تمكّنّا من الاسترجاعِ ورجعْنا إلى شروطِ فهمِ النّصّ الأُولى ومنها شروط اللّسان العربيّ المُبين، استطعْنا أن ننقُلَ هذه التّجربَةَ إلى غيْرِنا من النّاطقينَ بغيرِ لسان العربيّة، فنبلّغَ القرآنَ الكَريمَ كما أنزِلَ، ينبغي أوّلاً أن نتّخذَ اللّغةَ التي كانت مُتداوَلةً في عصر التّنزيل المَرْجِعَ في تفسيرِ القرآن الكريم واستنباط الأحكام منه، دون الالتفات إلى اللّغة الحادثة[1] وما طرأ عليها في العصور التالية من تطوّر في دلالات الألفاظ، ممّا لا ينبغي تحكيمه في فهم القرآن الكريم، وبعيداً عن الرّواسب الفكريّة التي يحملُها المفسِّر فيُسقِطها على القرآن الكريم، بما يُخرِج النّصّ عن بلاغته وأصالته، ومعنى ذلك أن لغة التنزيل تُرافق سياق

(1) انظر في تفصيل الكلام عن هذا الشّرط كِتابَ: محمّد جمال الدّين القاسمي (ت.1332هـ)، محاسن التأويل، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، ط2 (بيروت: دار الفكر، 1398هـ-1978م) 236/1.

التنزيل وتُلازمها[1] ولا تحيد عنها، فلا ينبغي إخراج المصطلح الشّرعي عن مدلوله الأصلي وإلا فسيصير «لفظُ الشّارع غير مُطابقٍ لمسمّاه الأصلي»[2]، «وهذا أمر يوجِبُ الجهلَ بالحقّ والظّلمَ للخَلق»[3].

وبعدَ أن نفهَمَ القرآن الكريمَ باللغة التي نزلَ بها، ننقلُه إلى الأمم الأخرى، على النّحو الذي نزلَ به، أي باعتبارِ مقاصدِه من النّزول، وهو الطابعُ الإنسانيّ العالَمي الشّامل الذي يصحّح المناهج ويقوّم الطرقَ والمسالِكَ، وهذا أمر لا يُحسِنُ تبليغَه إلاّ مَن أحسَنَ قراءَةَ القرآنِ وفهمَه بشروطه الأولى، والأمّة المسلمَة مُطالبَة بالنّهوض بهذه المهمّة الجَسيمَة؛ يُعينُها على ذلِك أنّ القرآن الكَريمَ عربيّ اللسان والخطاب، عالَميّ الدّعوة والمبادئ، وكلّ حيلولَة دونَ تبليغه بهذه الطّريقَة فهو إخراج لَه عن إطارِه الصّحيح وإقصاء للأمّة عن دورِ التبليغ، سواء أكان عُدوانُ الإقصاء من داخلِ الأمّة أم كانَ من خارِجها[4].

فقد كان الملوكُ والرؤساءُ آنذاكَ يتّخذونَ مَن يترجمون لهم الرّسائلَ الواردَةَ عليهم من النبيّ ﷺ بالعربية فيُترجمونَها إلى لغتهِم، بَل لَقَد كانَ اليهودُ وكثيرٌ من النصارى يعرفونَ اللسانَ العربيَّ، ومنَ النَّصارى مَن كانوا

(1) انظر أمثلة من الكلمات التي لها مدلولات جديدة غير مدلولاتها التي كانت لها في العصر الأول، في كتاب: يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ط2 (دار الشّروق، 1420هـ-2000م) ص232؛ وانظر أيضاً: عبد الرّحمن بودرع، منهَج السّياق في فَهْم النّصّ، منشورات كتاب الأمّة القطريّ، عدد: 111، السّنَة: محرّم 1427هـ-2006م، ص36.

(2) أحمد بن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم، ط. المكتب التّعليمي السّعودي بالمغرب، الرّباط، مكتبة المعارف، 395/35.

(3) المرجِع نفسُه، 395/35.

(4) انظر مزيداً من التّفصيلِ في كتاب: دراسَة أدبيّة لنصوص من القُرآن، ص116-133.

عَرباً خُلصاً كنصارى نجران، كما أن العجم من الفرس والروم كان من بينهم عرب يعايشونهم ويقيمون بينهم.

ولَمّا انتقلَت الدعوةُ من مرحلة الدعوة بالرسائلِ والوُفود، إلى مرحلة الفتح، كانَ الجنودُ المسلمون ينشرونَ اللغة العربية كما ينشرون الإسلامَ نفسَه. وما من أرض فَتَحَها الإسلامُ إلا وحلَّت بها اللغة العربية تُؤازرُه وتشدُّ عضُدَه، فظهَرَت اللغةُ العربيةُ على أكثرِ لغات الأمم والشعوب وحلَّت مَحلَّها، كالقبطية فى مصر والفارسية فى الشام...

- القرآنُ الكَريمُ عربيُّ اللّسانِ:

المقْصودُ ههنا أنّ القرآنَ الكَريمَ عربيُّ اللسانِ والخِطابِ، ولا يعني ذلِكَ أنّه ينتمي إلى العربِ، فقد نزلَ إلى النّاس كافّةً ولكن بلسانٍ عربيّ مُبين: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:2)؛ ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ (النّحل:103)؛ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشّعراء:193- 195)؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (طه:113)؛ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزُّمَر:27- 28)؛ ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فُصّلت:3)؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشّورى:7)؛ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزّخرف:3)؛ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف:12).

وممّا تجدرُ الإشارةُ إليه في بابِ الاصطلاحِ أنّ الوارِدَ في القرآنِ الكَريمِ هو مُصطلحُ اللّسانِ؛ فقد كان للعربِ لسانٌ واحدٌ ولُغاتٌ كثيرةٌ[1]، عبّر عنها ابنُ جنّي بقولِه: «بابُ اختلافِ اللّغاتِ وكلُّها حُجَّةٌ»[2]، فلقبائلِ العربِ لُغاتُهم[3]، واللّغَةُ أصواتٌ يُعبّرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضِهم، وللقرآنِ الكَريمِ لسانُه الخاصُّ ليتّصلَ باللّسانِ العربيّ كَما يشاءُ[4]، ويتصرَّفَ فيه بالانفصالِ عنه، أو بالهيْمَنَة عليْه، أو بغيرِ ذلِك من وجوه التّصرُّفِ والتّحكّم، فقد انفصَل لسانُ القرآنِ عن لِسانِ العربِ وهو من جِنْسِه، بِما كانَ من أمرِ التّحدّي والإعْجاز في النّظمِ والبَيانِ والفَصاحَة، ومع ذلكَ فَلا يُفهَمُ إلاّ باللّسانِ العربيّ المُبينِ.

فالقُرآنُ الكَريمُ عَربيّ اللسانِ، أيْ جارٍ في ألفاظِه وتراكيبِه وأساليبِه وبلاغتِه مجرى العَرب في لغتِهم، وفهمُ ألفاظِه وتراكيبه يعتمدُ على ألفاظِ العربيّة وتراكيبِها في معاجمِها وأشعارِها، أي يكونُ فهمُه من طريقِ لسانِ العرب، وفي ذلِك قال الإمام الشّاطبيّ: «إنّ هذه الشّريعةَ المُباركةَ عربيّةٌ، لا مدخلَ فيها للألسُنِ الأعجَميّة... وأنّ القرآنَ نزلَ بلسانِ العرب على الجُملَة، فطلَبُ فهمِه إنّما يكونُ من هذا الطّريقِ خاصّةً؛ لأنّ اللّه تعالى يقولُ:

---

(1) اللّسانُ أعمُّ من اللغةِ، واللُّغةُ أخصُّ، فاللّغةُ تُطلَقُ على ما يلفظُه اللّسانُ من قولٍ صادرٍ عن مجموعةٍ لغويّةٍ، ويُمكن أن تُطلقَ مجازاً على كلّ ما يُتوصّلُ به إلى التّفاهُم والتّواصُل. أمّا اللّسانُ فما به يكونُ البيانُ بصفةٍ أعمّ وأشمَلَ، وتندرِجُ تحتَه لُغاتٌ، وقد تُدْعى اللغةُ لِساناً كَما في قولِه تعالى: ﴿ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السّماواتِ والأَرْضِ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوانِكُمْ إِنّ في ذلِكَ لآياتٍ للعالِمِينَ﴾ (الرّوم:22).

(2) أبو الفَتح عُثمان بن جِنّي، الخصائص، تحقيق مُحَمَّد عَلِيّ النَّجّار، ط2 (بَيْروت: دارُ الْهُدى).

(3) كلُغةِ هُذيْل ولُغة قُريشٍ وغيْرِهما...

(4) طه جابر العلواني، لسانُ القُرآن ومُستقْبَل الأمّة القُطب، سلسلة دراسات قرآنية (4)، ط1 (القاهِرة: مكتبة الشّروق الدّوليّة، 1427هـ/2006م) ص19-20.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا.....﴾ (يوسف:2)، إلى غيرِ ذلِك ممّا يدلّ على أنّه عربيّ وبلِسانِ العربِ، لا أنّه أعجميٌّ ولا بلِسانِ العجَم، فَمَن أرادَ تفهُّمَه فمِن جهةِ لسانِ العربِ يُفهَمُ، ولا سبيلَ إلى تطلُّب فهمِه من غيرِ هذه الجهةِ»(1).

ويقول: إنّ القرآنَ «أنزِلَ على معهودِ العربِ في ألفاظِها الخاصّة وأساليبِ مَعانيها».

لقد كان للعربِ اعتناءٌ بعلومٍ ذكَرَها النّاسُ، وكان لعُقَلائهم اعتناءٌ بمكارِم الأخلاق، فصحّحت الشّريعةُ منها ما هو صحيحٌ وأبطلَت ما هو باطلٌ، وخاطبَهُم القرآنُ بدلائلِ التّوحيد فيما يعلَمونَ من سماء وأرضٍ وجبالٍ وسَحاب ونباتٍ، وبدلائلِ الآخرةِ والنّبوّةِ كذلك، وأخْبروا بما أنعَم اللّه عليهم ممّا هو لديهِم، وأخْبروا عن نعيم الجنّة بما هو مَعْهودٌ في نِعَمهم الدّنيويّة ومُتداوَل، كالماءِ واللبن والخمر والعسلِ والماءِ والنّخيل والأعناب(2).

لقد ذكَرَ اللّه سُبْحانه وتعالى للقرآنِ الكريمِ خمسَ صفاتٍ يمتازُ بها الكتابُ الكَريمُ، في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ (الزّمر:23)؛ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزُّمَر:27- 28).

فمنْ صِفاتِ القرآنِ الكَريمِ أنّه أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وأنّه يُضرَبُ

(1) أبو إسحاق الشّاطبيّ، المُوافَقات في أصول الشّريعَة، ضبط محمّد عبد الله درّاز (بيروت: دار المعرِفَة) 64/2.

(2) انظر تفاصيلَ كثيرَةً عن الأسلوب القرآني في المُخاطَبَة: أبو إسحاقَ الشّاطبيّ، في مواضعَ كثيرةٍ من الجزء الثّاني من كتابِ المُوافَقات في أصول الشّريعَة.

فيه الأمثالُ للنّاسِ تخويفاً وتحذيراً، وأنّه قرآنٌ متلوٌّ إلى يومِ القيامَة، وأنّه عربيُّ اللّسان، وغَير ذي عِوَج، أي بريء من التناقُض والتعارُض. وصفةُ عُروبةِ اللّسانِ في القُرآن الكَريم تَعني أنّه كُلّه عَربيّ اللّسانِ، فَصيح البيانِ، ليسَ مُلفَّقاً من عَربيّة وأعجميّة، وذلِك ليؤدّيَ مهمّته على الوجهِ الأكمَلِ.

فالعربيّةُ لسانُ القرآنِ الكَريمِ، ثمّ إن محمداً ﷺ عربي اللسان؛ قالَ الإمامُ الشّافعيُّ في فضلِ لِسانِ النبيّ ﷺ: «وأوْلى النّاسِ بالفَضلِ باللّسانِ مَن لِسانُه لسانُ النّبيّ، ولا يجوز أن يكون أهلُ لسانه أتباعاً لأهلِ لسانٍ غير لسانِه... بلْ كلُّ لسانٍ تبعٌ للِسانِه، وكلُّ أهلِ دينٍ قبلَه فعليهِم اتّباعُ دينِه»[1].

والبيانُ النبويّ العربيُّ من لوازمِ تبليغِ الرّسالَة وإبائتِها وإخراجِها للنّاسِ، ولا يُعقَلُ أن يُحافَظَ على عربيّةِ القرآنِ الكَريمِ مِن غيرِ الحِفاظِ على بيانِه الذي هو البَيانُ النبويُّ؛ لأنّ البيانَ النبويّ يَعصمُ النّصّ القرآنيَّ من تَحريف الكلِمِ عَن مَواضعِه وفسادِ تأويلِه، ومِنْ ثَمَّ ذهَبَ عُلَماءُ الحديثِ إلى أنّ روايةَ الحديثِ بالمَعْنى لَمِمّا يُعَرِّضُ الحَديثَ أحياناً للرّدِّ وعَدَمِ التّسويغِ[2]، والمَعْلومُ مِن الحَديثِ الصَّحيحِ أنَّ الرّاوِيَ يَنْبَغي لَه أن يُؤدّي الحَديثَ كَما سَمِعَه[3]، وأن يَلْتَزِمَ أمانَةَ التَّلَقّي والرِّوايَةِ ويُراعِيَ اللّفْظَ العربيّ الفَصيحَ الذي سُمِعَ عن

---

(1) محمّد بن إدريس الشّافعي، الرّسالَة، تحقيق أحمد محمّد شاكِر (بيروت: دار الفكر) ص46.

(2) انظر: عبد الرّحمن بودرع، الإيجاز وبَلاغَة الإشارَة في البيانِ النبويّ (تطوان، المغرب: مط الخَليج العربيّ، 1430هـ- 2009م) ص84-85.

(3) رَوى الزّهري عن محمد بن جبير بن مطعمٍ عن أبيه جبير قالَ: قامَ رَسول الله ﷺ بالخيف فقالَ: «**نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مَقالَتي فَوَعاها ثمّ أدّاها إلى مَن لم يَسمَعها، فَرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ لا فقهَ له ورُبَّ حامل فقه إلى مَن هو أفقَه منه**. ثَلاثٌ لا يُغَلُّ عَليهنَّ قلبُ مؤمنٍ: إخلاصُ العَملِ لله، والطاعةُ لذَوي الأمرِ، ولزُومُ جَماعةِ المسلمينَ؛ فإنَّ دَعوتَهم تُحيطُ من ورائهِم». قالَ الحاكِمُ النّيسابوريّ: هذا حَديثٌ صَحيحٌ عَلى شَرطِ الشَّيخين. انظر: أَبو عَبْدِ اللهِ الْحاكِمِ النّيسابوريّ (ت.405)، المستدرك على الصحيحين، تَحْ مُصْطَفى عَبْد الْقادِر عَطّا، ط1 (بَيْروت: 1411هـ-1990م) 162/1.

النبيّ ﷺ، في النّقْلِ؛ لأنّ التّبديلَ لا يُؤمَنُ فيه التّحريفُ أو الزِّيادةُ[1]. فالمُحدِّثُ، إلى جانبِ ثقتِه في الدّينِ وصِدقِه في الرِّوايةِ وعقْلِه لِما يُحدِّثُ به، يُؤَدّي الحديثَ بحُروفِه كَما سَمِعَ، ولا يُحَدِّثُ به على المَعْنى؛ فلا يَدري لَعلَّه يُحيلُ الحَلالَ إلى حَرامٍ، كَما نَبّه عَلى ذلِكَ الإمامُ الشّافعيُّ[2]، فإذا أدّاه بحُروفِه انْتَفى احْتِمالُ الإحالةِ[3].

وما العنايَةُ بروايَة الحديثِ بلفظِه كَما سُمِعَ عن النبيّ ﷺ إلاّ للاطمئنانِ على صحّةِ البيانِ النبويّ للنصّ القرآنيّ. وهذا السمْتُ العربيّ الفصيحُ ينبغي المُحافظةُ عليه، وعروبَةُ لسانِ القرآنِ الكَريم لا تنفي عالميّةَ التوجيه والتشريع والسلطان. ووحدة اللغة في الإسلام مثل وحدة العقيدة فيه. وعُروبةُ لسانه - ولسانِ الرّسولِ ﷺ- لم تحُلْ دونَ انتشار الإسلام بين الأمم والشعوب غير العربية.

أمّا عن وجودِ ألفاظٍ غيرِ عربيّةِ الأصلِ، في القرآنِ، فلا تعارضَ بينَ كونِ القرآنِ الكريمِ مُنزّلاً «بلِسانٍ عربيّ مُبينٍ» وبينَ وجودِ كلماتٍ غيرِ

---

(1) ذَهَبَ كَثيرٌ مِن العُلَماءِ إلى أنّه «يَنْبَغي سَدُّ بابِ الرِّوايَةِ بِالمَعْنى لئلاّ يَتَسَلَّطَ مَنْ لا يُحْسِنُ مَمّنْ يُظَنُّ أنّه يُحْسِنُ، كَما وَقَعَ للرُّواةِ كَثيراً قَديماً وحَديثاً، وعَلى الجَوازِ الأوْلى إيرادُ الحَديثِ بلَفظِه دونَ التَّصرُّفِ فيه، ولا شَكَّ في اشْتِراطِ أنْ لا يَكونَ مِمّا تُعُبِّدَ بِلفظِه، ويُشْتَرَطُ أنْ لا يَكونَ مِنْ جَوامِعِ الكَلِمِ. وهذا الخِلاف إنَّما يَجْري في المُصَنَّفاتِ ولا يَجوزُ تَغييرُ شَيءٍ مِنْ مُصَنَّفٍ وإبدالُه بِلَفظٍ آخَرَ وإنْ قطعا؛ لأنَّ الرِّوايةَ بِالمَعْنى رَخَّصَ فيها مَنْ رَخَّصَ لِما كانَ عَليهِم في ضَبْطِ الألفاظِ مِنَ الجرحِ مَوجود فيما اشْتَمَلَت عَليه الكُتبُ ولأنّه إنْ مَلكَ تَغييرَ اللَّفظِ فَليسَ يَملِكُ تَغييرَ تَصنيفِ غَيرِه. ويَنبَغي للرّاوي بِالمَعنى أنْ يَقولَ عقيبَه: «**أوْ كَما قالَ**» أو «**نَحْوه**» أو «**شِبْهه**» أو «**ما أشْبَه هذا مِنَ الألفاظِ**»، وقدْ كانَ قومٌ منَ الصَّحابةِ يَفعلونَ ذلكَ وهُمْ أعلمُ الناسِ بمَعاني الكَلامِ خَوفاً منَ الزّلَلِ لِمَعْرِفَتِهِم بِما في الرِّوايةِ بِالمَعنى مِن الخَطرِ»، تَدْريبُ الرّاوي، 2/99-102.

(2) الإمام محمّد بن إدريس الشّافعي، الرّسالة، ص370-371.

(3) هذا وقَدْ ضَيَّقَ العُلَماءُ مَجالَ الرِّوايَةِ بالمَعْنى، وقَيَّدوها تَقْييداً يَمْنَعُ التَّزَيُّدَ والوَضْعَ، وقَصَروها عَلى أهْلِ العِلْمِ، فَذَهَبوا إلى أنّ «الأَصَحّ أنّ الحَديثَ إنْ كانَ **مُشْتَرَكاً أو مُجْمَلاً أو مُتَشابِهاً أو مِنْ جَوامِعِ الكَلِمِ لَمْ يَجُزْ نَقْلُه بِالمَعْنى، أو مُحْكَماً جازَ لِلعالِمِ بِاللُّغَةِ، أو ظاهِراً يَحْتَمِلُ الغَيْر، كَعامٍّ يَحْتَمِلُ الخُصوصَ، أو حَقيقَةً يَحْتَمِلُ المَجازَ، جازَ لِلْمُجْتَهِدِ فَقَط**»؛ قَفْوُ الأثَرِ في صَفْوِ عُلومِ الأثَر، 83.

عربيّةٍ فيه؛ لأنّ هذه الكلماتِ الدّخيلَةَ خضعَت لمقاييسِ العربيّةِ فأصبَحَت مُعرَّبَةً[1] وفقدَت عُجمَتَها.

ونشرُ رِسالَة القرآنِ الكَريم في العالَم لا يَعني بحالٍ من الأحوالِ ترجَمَةَ ألفاظِ القرآنِ وتراكيبِه وتنزيلِ التّرجَمَة منزلَةَ الأصلِ؛ لأنّ التّرجمَةَ ضربٌ من تحويلِ معاني النصّ الأصليّ من بيئتِها اللغويّة الأولى إلى بيئةٍ لغويّةٍ جديدَة بما في هذه البيئَة من مصطلَحاتٍ ومَفاهيمَ وحمولاتٍ ثقافيّةٍ وعقديّةٍ واجتماعيّة، تختلفُ عن مَفاهيمِ النّصّ بل تُناقِضُها أحياناً مناقضةً تامّةً، وهذا نوعٌ من «الضّلالِ الثّقافيّ، والانْتقاصِ لعمليةِ البَلاغِ والإبانَة، التي جُعِلَت العربيّةُ وِعاءً لَها»[2]، فالمُحافَظَةُ على عربيّة القرآنِ الكريمِ مُحافظةٌ على المرجعيّة والوِعاءِ، وتبليغٌ للمعاني والمضامينِ تبليغاً صحيحاً، بعيداً عَن تَحريفِ الغالينَ وانْتِحالِ المُبْطِلينَ وتأويلِ الجاهِلينَ، فكلُّ لُغةٍ تُخفي وراءَها عاداتِ أهلِها وأساليبَهُم في تصوّرِ المَفاهيمِ، وأقوالَهُم وأحوالَهم... ألا تَرى أنّ العربَ دأبوا على اتّخاذِ الآلِهَة في الأرضِ وإن كانوا مُقِرّينَ بالإله الواحدِ الحقّ، فَجاءَت الآياتُ بتعيينِ الفرقِ بين آلهتهم والإله الواحدِ الحقِّ تنبيهاً على نفيِ ما ادّعَوه في الأرض: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النّحل:49- 50)، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا

(1) انظر مسألةَ تأصيلِ الكلِماتِ المُعرّبَة في القرآن الكَريم، كتابَ محمّد السيّد علي بلاسي، المُعرَّب في القرآن الكَريم، ط1 (ليبيا: جمعيّة الدّعوة الإسلاميّة العالَميّة، 2001م).

(2) انظُر مُقدّمةَ الدّكتور عمر عبيد حسَنه لكتاب «في شرفِ العربيّة»، د.إبراهيم السّامرّائي، كتاب الأمّة، العدد 42، جمادى الآخرة 1415هـ، ص10.

﴿ تَمُورُ ﴾ (المُلك:16).

ولَوْ أذِنَ للنّاس أنْ يُترجموا القرآنَ الكَريمَ وأن يَكتُبوه بغير الحرف العربي ويتعبّدوا بنصّ التّرجَمة؛ لأفضى ذلك إلى تَحريفِ النّصِّ الكَريم وضَياع ما يحمله من هُدىً ونور، ولأفضى أيضاً إلى إسقاط واجبِ تَعلُّم العربية، بيْنَما العلمُ بالعربيّةِ وتعلُّمُها واجب على كل مسلم ومسلمة؛ لأنه لا يمكنهم الفهم عن ربهم ونبيهم إلا من طريق اللسان العربي؛ فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والوَسائلُ تُعطى حُكمَ الغاياتِ، شَرعاً وعقلاً[1].

هذا، وإنّ العربيّةَ ليست وسيلَةَ تبليغٍ وبيانٍ للنّصّ القرآنيّ، فقط، ولكنّها جزءٌ من علومِ الشّرعِ؛ ومعرِفَةُ الأحكام الشّرعيّة واستنباطُها من القرآن الكَريم يتوقّفُ على معرِفَة لسانِ العرب؛ لأنّ «ما لا يتمُّ الواجبُ إلاّ به فهو واجبٌ»[2]، وعليْه فإذا كانت اللغةُ العربيّةُ تُفضي إلى معرِفَةِ الدّين فهي من الدّينِ، وإنّ اللّه عزّ وجلّ «لَمّا أنزلَ كتابَه باللّسانِ العَربيِّ، وجعلَ رَسولَه مُبلغاً عنه الكتابَ والحكمةَ بلِسانِه العَربيّ، وجَعلَ السّابقينَ إلى هذا الدّينِ مُتكلّمينَ به، لم يكنْ سَبيلٌ إلى ضَبطِ الدّينِ ومَعرفتِه إلاّ بضبطِ هذا اللّسانِ، وصارَت مَعرفتُه منَ الدّينِ، وصارَ اعتيادُ التّكلُّم به أسْهلَ عَلى أهلِ الدّينِ في مَعرفةِ دينِ اللّه، وأقرَبَ إلى إقامَةِ شعائرِ الدّينِ، وأقْرَبَ إلى مُشابهتِهِم للسّابقينَ الأوّلينَ، مِن المهاجرينَ والأنْصارِ، في جَميع أمورهِم»[3].

وهكذا، فإذا كان علم العربية يُفضي إلى فهم نصوصِ الدّين

---

(1) صالح علي العود، تحريم كتابة القرآن الكريم بحروف غير عربية، ط1 (المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، 1416هـ).

(2) انظر ابنِ حَزم الظّاهِريّ، الإحكام في أصول الأحكام، ط1 (بيروت: دار الكُتب العلميّة، 2000م).

(3) أحمد بن تيميّة، اقتضاء الصراط المُستَقيم، مُخالَفَة أصحاب الجَحيم (بيروت: المكتبَة العصريّة).

فهو الدّينُ عينُه، كما قالَ أبو عمرو بنُ العَلاء: «لَعلمُ العربية هو الدّينُ بعينِه». فَبِعِلم العَربية يتمّ «الوصولُ إلى التّكلّم بكلامِ العرب على الحقيقةِ صوابًا غيرَ مبدِّل ولا مغيّر، وتقويمِ كتابِ اللّه الذي هو أصلُ الدّين والدّنيا والمُعتمَدُ، ومعرفةِ أخبارِ النّبي ﷺ، وإقامةِ معانيها على الحقيقة»(1)، والعربيةُ من الدّين؛ لأن فقهَها مِن فقه الشّريعة.

إنّ القرآنَ الكريمَ عربيُّ اللّسان، في لغتِه ومنهجِ خطابِه، ولا يعني ذلِك أنّه يُخاطبُ العربَ وحدَهُم، ولكنّه عربيّ في ألفاظه وتراكيبِه وتَناسُق أصواتِه وإحكامِ نظْمِه وتأثيرِه البَلاغيّ وإعجازِه البيانيّ، فالنّظمُ القرآنيّ من الخصائص التي استأثرت باهتمامِ علماءِ اللغة والبلاغَة، فقد درسوا أساليبَ القرآنِ وعلاقاتِ جُملِه بعضها ببعض من النّاحيةِ التّركيبية، ودرسوا أصواتَه وإيقاعاتِه وتناسُبَ فواصلِه ومقاطعِه، ومناسبةَ ألفاظه لمعانيه، ودرسوا صوَرَه البيانيّةَ، وأوجهَه النّحويّةَ والصّرفيّةَ، ودلالاتِ ألفاظِه المعجميّة.

وتوصّلَ العلماءُ إلى أنّ القرآنَ الكَريمَ لا يُدرسُ ويُشرَحُ إلاّ بمنهج شموليّ يُراعي أنواعَ السّياقِ التي تندرِجُ فيها الآياتُ؛ فإنّ التّحليل بالسياق يُعدّ وسيلةً من بين وسائل تصنيف المدلولات(2)، لذلك يتعيّن عرض اللّفظ القرآنيّ على موقعه لفهم معناه ودفع المعاني غير المرادة. وللسّياق أنواع كثيرة

(1) أبو القاسم الزّجاجي، الإيضاح في علل النّحو، تحقيق: د.مازن المبارَك ط3 (بيروت: دار النّفائس، 1399هـ-1979م) ص95.

(2) توصّل علماءُ الدّلالة في العصر الحديث إلى تصنيف المدلولات بالاعتماد على عدّة طرق: الطريقة الشكلية أو الاشتقاق الصرفي، والطّريقة السّياقيّة، والطّريقة الموضِعيّة (تصنيف المدلولات بحسب موضع المتكلّم وموقفه)، والحقول الدّلاليّة (القَرابة الدّلاليّة بين المدلولات)، والتّحليل بالمُؤلّفات التي تتألّف منها الكلمة. انظر في تفصيل هذِه الطّرق: موريس أبو ناضر، «مدخل إلى عِلم الدّلالة الألسنيّ»، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، مارس1982م، ع18-19.

منها[1]:

- السّياق المَكاني ويعني سياق الآية أو الآيات داخل السّورة وموقعها بين السّابق من الآيات واللاّحق، أي مراعاة سياق الآية في موقعها بين السّابق من الآيات واللاّحق، أي مراعاة سياق الآية في موقعها من السّورة، وسياق الجملة في موقعها من الآية، فيجب أن تُربَط الآية بالسّياق الذي وردت فيه، ولا تُقطَع عمّا قبلها وما بعدها.

- والسّياق الزّمنيّ للآيات، أو سياق التّنزيل، ويعني سياق الآية بين الآيات بحسب ترتيب النّزول.

- والسّياق المَوضوعيّ، ومعناه دراسة الآية أو الآيات التي يجمعها موضوع واحد، سواء أكان الموضوع عامّاً كالقصص القرآنيّ أو الأمثال أو الحِكم الفقهية، أم كان خاصّاً كالقصة المخصوصة بنبيّ من الأنبياء أو حُكم من الأحكام أو غير ذلك، و تتبّع مواقعها في القرآن الكريم كلّه.

- والسّياق المَقاصديّ ومعناه النّظر إلى الآيات القرآنيّة من خلال مقاصد القرآن الكريم والرؤية القرآنية العامّة للموضوع المُعالَج، وهو ما اختصّت به دلالات الألفاظِ والأساليبِ في أصولِ الفقه.

- والسّياق التّاريخيّ بمعنييه العامّ والخاصّ؛ فالعامّ هو سياق الأحداث التّاريخيّة القديمة التي حكاها القرآن الكريم والمُعاصرة لزمن التّنزيل، والخاصّ هو أسباب النّزول.

- والسّياق اللّغويّ، وهو دِراسةُ النصّ القرآنيّ من خلال علاقاتِ ألفاظِه

(1) انظر: بسط الموضوع في كتاب: عبد الرحمن بودرع، منهج السّياق في فهم النّصّ، كتاب الأمة، ع111، المحرّم1427هـ-فبراير 2006م.

بعضها ببعض والأدواتِ المستعملة للرّبط بين هذه الألفاظ، وما يترتّب على تلك العلائق من دلالات جزئية وكلّية.

وينبغي تحكيم كلّ هذه الأنواع من السّياق عند إرادة دراسة النّصّ القرآني بمنهج سياقيّ متكامل، وكذلِك فَعَلَ كثيرٌ من المُفسّرينَ؛ لأنّهم أيْقَنوا أنّ الاقتصارَ على السياق التّاريخيّ وحدَه سيحومُ حولَ النّصّ ولا يعدوه، وأمّا الاقتصار على السّياق اللغويّ وحدَه دون الالتفات إلى الأحداث التّاريخيّة المحيطة به أو المصاحبة لنزوله فسيجعل من النّصّ بنيةً لغويّةً مغلقةً تقتصر على ما تفيده الألفاظ من معانٍ ودلالات[1].

رِسالَةُ القرآنِ الكَريمِ عربيّةُ اللّسانِ أوّلاً، والنّصّ القرآني بادئ ذي بدء نصٌّ لغويٌّ منسوجٌ من جنس كلامِ العرب، مؤلَّفٌ من جمل مترابطة تشكّل عناصر ذات دلالات خاصّة بها، وتتضافر هذه العناصر لتؤلّف كلاماً يفيد قصداً دلالياً معيناً.

وهذه قاعدة ثقافية ثابتة لفهم النصّ القرآني، واقتضت هذه القاعدةُ من عُلماءِ التّفسير الوقوفَ عند ظاهر اللّفظ باعتباره أساساً لفهم المعنى، ولم يُلتفَت إلى الجوانب التّاريخيّة أو النّفسيّة أو الثّقافيّة إلا في إطار ضيّق وبحذر شديد خشية الوقوع في محظور التفسير بالرأي، وتبيّن أنّ للنّصّ القرآني ثابتاً يُلتزَم بالوقوف عندَه ومتغيراً يكونُ عُرضة للاجتهاد والتأويل والفهم المجازيّ.

ولقد أدرَكَ العُلَماءُ أنّ القرآن الكَريمَ جاء معرِّفاً بالأحكام الشّرعيّة، وجاء تعريفه بهذه الأحكام كلّيّاً لا يختصّ بشخص أو حال أو زمان

(1) منهج السّياق في فهم النّصّ، ص29-31.

أو شرط أو ركن أو غير ذلك بل يعمّ كلّ زَمانٍ وكلَّ مكانٍ وكلَّ شرْطٍ ورُكنٍ، وجاءت تلك الأحكام الكلّية مستوعبةً كلَّ الظّروف والأحوال والطّاقات، وكلّما أحسن الفقيه وتمكّن من تنزيل تلك الأحكام الكلّية - المجرَّدة من ظروف زمان بعينه أو مكان بعينه- على الوقائع والأقضية، أدرك المقاصد العليا للشريعة، ولكن بشرطِ إتقانِ العلمِ بلسانِ العربِ.

ولقد أدرَكَ عُلماءُ التّفسيرِ والفقهِ والأصولِ أنّ من خصائص لغة القرآن الكريمِ ودلالات ألفاظِه أنّه قد يكون للدّالّ أكثرُ من مدلول، ويتحدّد المدلول وفقَ السياق اللّغويّ، ويرى بعض اللغويين الغربيين أنّ للكلمة أكثرَ من معنى سواء أكان هذا المعنى حقيقياً تصريحيّاً أم كان مجازياً إيمائياً، وذلك بالنظر إلى التّداعيات الدلالية التي يمكن أن تُحدِثها الكلمة في أثناء الاستعمال، فأي كلمة قد تستدعي قيما اجتماعية وثقافية أو انفعالية، تعكس صورة قائلها وتحدّد بعض ملامحه النفسية(1)، ولا يمكن استخراج المدلول المقصود من بين المدلولات المحتمَلة إلا بعرض الكلمة على السياق وإخراجها من عُزلتها المُفترَضة والكشف عمّا تتلفّع به من الحالات النفسية والظّلال الدّلاليّة والتّجارب البشرية والرّصيد التّاريخي الطويل.

ولقَد ورَدتْ في القرآنِ الكَريم أفعالٌ كثيرةٌ تتّخِذُ معاني مختلفةً بحسب مواقعها من السّياقِ، فليس مَعنى الكلِمة المعجمِيُّ هو المعنى الرّئيسُ، كما درَج على تقريرِه اللّغويّون وعلى تصوّرِه علماءُ المعجم، عندما بنوا معاجِمَهم على وحدة محدَّدة هي الكلمة، ولكنّ لكلّ كلمة معانِيَ شتّى،

(1) بيير كيرو، علم الدّلالة، ترجمة د. منذر عياشي (دمشق: دار طلاس، 1988م) ص61؛ منقور عبد الجليل، علم الدلالة، أصولُه ومباحثه في التراث العربي (دمشق: منشورات اتّحاد كتّاب العرب، 2001م).

عالِقةً بها، والسياق هو الذي يستدعي المعنى المناسبَ من بين تلك المعاني الكثيرة. إنّ الكلمةَ مَعِينٌ من الدّلالات التي لا تنضُب، ولا ينبغي استئصالُها من مساقاتها والادّعاء أنّ لها معنى رئيساً ومعانِيَ فرعيّةً، وهذا هو النّهجُ الذي الْتَزَمَ به كثيرٌ من عُلماءِ الفقه والتفسيرِ؛ لأنّهُم كانوا مُلزَمينَ باستنباطِ المَعاني والأحكامِ التي تُوافِقُ المَقاصدَ العُلْيا للشّريعَة ولا تُعارِضُها ولا تُخالفُها، وتُحقّقُ جلْبَ المَصالح النّافعَةِ للعبادِ، ودَرْءَ المفاسد والمضرّاتِ عنهم.

وأدرَكَ عُلماءُ اللغةِ والتّفسيرِ أيضاً أنَّ الجملةَ وحدةٌ أساسٌ، في إعرابِ الكلامِ وتحليلِه...

أمّا في القرآن الكَريم فالوحدةُ الأساسُ هي الآيَةُ، وليسَت الآيةُ وحدةً نحويةً أو دلاليّةً، ولكنّها لبِنَةٌ في صرحِ البناءِ القرآنيّ المُعجِز، سواء أكانَت الآيةُ الواحدةُ جُملةً تامّةً، نحو قولِه تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (النّبأ:8- 13)، أم كانتْ مؤلّفةً من أكثرَ من آيةٍ نحو قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ (المؤمنون:57- 61)، وقدْ تأتي الآيةُ الواحدةُ مؤلَّفةً منْ جُملٍ كثيرةٍ عُطفَ بعضُها على بعضٍ، أو استُؤنِفَ بعْضُها بعدَ بعضٍ، نحو قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحُجُرات:13).

ويقفُ القارئُ عندَ آخرِ كلّ آيةٍ إن لم يختلّ المَعْنى، أو يقفُ عند متمّ كلّ معْنىً، فيجعلُ الآيةَ أو الوحدةَ المعنويّةَ فقرةً من فَقراتِ السّورَة.

وقد تأتي الآيةُ كلمةً واحدةً، خاصّةً في أوائلِ السّوَرِ، للَفتِ النّظر، كما في قولِه تعالى: «الحاقّةُ» و«القارِعَةُ»، وقد تأتي السّورةُ على هيئةِ سلسلةٍ من تتابُعِ كلمتيْن بعدَ كلمتيْن أو ثلمّ ثلاثٍ ثمّ أربعٍ، كَما في سورةِ الرّحمن[1].

ومن بابِ التّنبيه أنّ الجُملةَ المركّبَةَ في القرآن الكريمِ قد تَطولُ طولاً لافتاً للنظرِ، وتتركّبُ من عناصرَ وأجزاء غيرِ قابلةٍ للانفصال والتّجزيء؛ لأنّها تُعبّر عن فكرةٍ واحدةٍ ذاتِ أوجهٍ متعدّدَة وجوانبَ كثيرةٍ، وهي ظاهرةٌ أسلوبيّةٌ لا تصدرُ إلاّ عن فكرٍ رفيعٍ وقدرةٍ عاليةٍ على التأليفِ بين العناصرِ، وهذه خصيصة لم تكن مألوفَةً في النّثرِ قبلَ القرآنِ الكَريمِ ولا بعدَه ولكنّ هذا الضّربَ من الأساليبِ بدأ يظهرُ مع تطوّر الفكرِ في العصرِ الحديثِ، وتطوّرِ النثرِ الفنّي في الأدب العربي، ولا يُناسبُ هذه الأساليبَ العاليةَ المركَّبَةَ - من مناهجِ التّحليلِ- إلاّ ما يُدعى اليومَ بلسانياتِ النّصّ أو نحو النّصّ[2].

---

(1) انظر تركيب الآيات والجمل القرآنيّة في: دراسَة أدبيّة لنصوص من القُرآن، ص139 وما بعدَها... فقد تناولَ الكاتبُ بالبحثِ الجُملةَ البسيطةَ القصيرةَ والجملةَ البسيطةَ الطّويلةَ والجُملةَ الطّويلةَ المُسلْسَلَةَ والجُملةَ الطّويلةَ المُركّبةَ.

(2) ظهرَتْ أواخرَ السّنوات السّتّينَ وبدايةِ السّبعينيّات أعمالٌ لسانيةٌ تَصبّ في ميدانِ لسانياتِ النّصّ وتَستوعبُ النّصوصَ مَيداناً لغوياً جَديداً يَتجاوزُ الجملةَ وما وُضِعَ لها من قواعدَ. انظُرْ في التّعريفِ بلسانيات النّصّ: محمد الشّاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تونس: المؤسسة العربية للتوزيع، 2001م)؛ أحمد المتوكّل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفيّة، بنية الخطاب، من الجملة إلى النّصّ (الرّباط: دار الأمان للنشر والتّوزيع، 2001م).

خُلاصَة

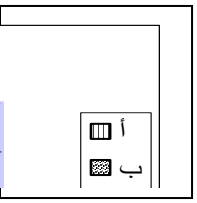

وهكذا، فبعدَ التّنبيه على بَعضِ خَصائصِ الجُملَة القُرآنيّة والنّظمِ القُرآنيّ والبَلاغَةِ القُرآنيّة، نقولُ: إنّ القرآنَ الكَريمَ يُخاطبُ البشريّةَ جميعَها بالمبادئِ والمُثُل، وهو كتابُ العربِ الخالدُ الذي يربطُهم بالإنسانيّة ويَرْقى بهم إلى خالقِهم.

وما من إهمالٍ يلْحَقُ باللسانِ العربيّ إلاّ ويُصيبُ عقيدَةَ المسلمينَ وكتابَهُم ودينَهُم بالمِثْلِ، فقد كان لسانُ القرآنِ ركناً مكيناً في بناءِ وحدةِ الأمّةِ، ولا بدّ أن يعودَ هذا اللّسانُ إلى ما كان عليْه، لتعودَ لهذه الأمّة مكانتُها وريادتُها في حملِ الرّسالَة وتبليغِ الأمانةِ.

لقد أكّدَ القرآنُ الكريمُ على عالَميّة رِسالتِه وخُلودِها، بالقدرِ الذي أكّدَ فيه على عربيّةِ لسانِه، أي نسبَ لسانَه إلى لسانِ العربِ، ونسبَ نفْسَه إلى الفصاحَة والبلاغةِ والبيانِ، في الوقتِ ذاتِه.

وهذه النّسبةُ تفرضُ على الأمّةِ أن تعودَ إلى إحياءِ لسانِها وبيانِها بقدرِ ما هي مدعوّةٌ إلى تصحيح تصوّرِها واعتقادِها ونشرِ رِسالة الإسلام الخالدَة بين الأمم.

وآخِرُ دَعْوانا أن الحَمْد للّه ربِّ العالَمين.